الموتى لا يبكون

مشدوها أتسمر أمام القبر, بقلب واجف ويد مرتعشة أتلمس انفراجة الباب الحديد, وقد انفلت من طوع المتراس الكبير.. أحدهما حاول فتح الباب للدخول..

"ولم الدخول؟!.."

سؤال محير, بلا إجابة..

أو أنه هو هو من حاول فتح الباب للخروج..

"وهل يملك الموتى حقا للعودة؟!.."

من يسعفني بإجابة ليطفئ النار التي اشتعلت في قلبي منذ حديث الطبيب!!..

كصاعقة هبطت علي من السماء؛ كان موته. كان حينها يتوضأ عندما اقتنصه ملك الموت.. لطمتني سقطته فهرعت, لأجد الماء يقطر من أعضائه وشهقات النزاع الأخير تشق شفتيه.. برهة من الزمن وغادر.. وتركني بمفردي أتجرع مرارة الفقد والفراق..

على المغسل انفرطت دموعه هو الآخر, وعبثا جففت الدموع التي اندلع لها بكائي والنحيب.. واعتذار قرأته على ملامحه, وصفحة وجهه, وكأنه يعتذر عن المغادرة على هذا النحو المفاجئ, وأنا الأب السبعيني, وهو ابني الوحيد..

قتلني التساؤل عن مغزى الدموع!!..

في الخميس الأول لموته, ربت الشيخ على كتفي, وقال:

"دموعه التي انفرطت على المغسل دليل رحمة.. كان طيبا.. وقد تغمده الله برحمته.."

انقبضت أسارير الطبيب الجالس مواجهتي لحديث الشيخ.. فأرهفت له أذني، والتزمني الصمت..

قال الطبيب زاعقا منفجرا, ملقيا بحمله الثقيل:

"الموتى لا يبكون.. لا يبكون.."